فى المحبة

حب الله

حب الله فى قلوب الناس يتفاوت ، وهم فى ذلك متباينون ، فعلى قدر الوصل يكون القرب ، وعلى قدر القرب تكون درجة الحب ، فمن الناس من ذاق الحب فاستطابه ، ومنهم من ملك عليه الحب إهابه ، ومنهم من أترع كأس الحب فشربها حتى الثمالة ، أولئك الذين باعوا دنياهم بآخرتهم فعملوا للآخرة كأنهم سيموتون غدا ، فلم يكن لهم من دنياهم نصيب ، وليس لهم فى حياتهم غد ، أولئك الذين حق فيهم قول الشاعر : -

لم يكن لى غد فأفرغت كأسى ثم حطمتها على شفتيا

ومن هذا نعلم أن الحب درجات ومراتب ، وأنه الميل الطبيعى للشىء لكونه لذيذا عند المحب فإن قوى الحب سمى صبابة ، لانصباب القلب إليه بالكلية ، فإن زاد سمى غراما ، لأنه يلازم القلب كلزوم الغريم ، فإن اشتد سمى عشقا ، أى إفراطا فى المحبة ، فإذا عظم سمى شغفا ، لأنه يصل إلى شغاف القلوب وداخلها ، فإذا قوى سمى تتيما (أى تعبداً) لأنه يصير المحب عبدا للمحبوب ، فيكون ذلك المحب متيما مأمورا ، ومغرما مأسورا ، لا يقر له قرار ، ولا يميز بين النافع والضار ، فيحترق بنيران الحب ، ويتضور من مرارة العذاب ، ولذلك قال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين .

ولا تسكن محبة الله القلب إلا بعد أن تخلص النفس من أدرانها ، وتطهر من أحقادها ، ولا يكون ذلك إلا بالمداومة على العبادة ، وملازمة سكن الصالحين ، وطرق الواصلين ، ومن ادعى المحبة وهو مستغرق فى ملاذه فهو كذاب ، وكيف يطمع فى دخول الجنة من لم يطرق الباب ، قالت السيدة رابعة العدوية : -

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ثم إنه لابد للإنسان من شيخ يهتدى بهديه ، ويستضىء بنوره ، فى تلك المفاوز الوعرة حتى

لا تزل قدمه ، ومَن من الناس من قطع الفيافي والقفار ، دون أن يتخذ من روادها دليلا !

قال الإمام الغزالي(١) : ـ كنت في بدء أمري منكرا لأحوال الصالحين ، ومقامات العارفين حتى صحبت شيخي (يوسف النساج) بطوس ، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله في المنام فقال لي : (يا أبا حامد ! ذر مشاغلك ، واصحب أقواما جعلتهم في أرضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبي .) فقلت : ـ بعزتك إلا أذقتني حسن الظن بهم ، فقال (قد فعلت . والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختارا ، قبل أن تخرج منها صاغرا ، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسي ، فخذ ، وقل) فاستيقظت فرحا مسرورا ، وجئت إلى شيخي فقصصت عليه المنام ، فتبسم وقال ، يا أبا حامد : هذه ألواحنا في البداية محوناها بأرجلنا ، بل إن صحبتني ستكحل بصيرتك بإثمد التأييد ، حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار ، فتصفو من كدر طبيعتك ، وترقى على طور عقلك وتسمع من الله كموسى « إني أنا الله رب العالمين ... » .

وكما أنه لا بد أن يتخذ الإنسان من الزاد ما يكفيه لبلوغ نهاية الطريق ، إذ قد ينفد الزاد وينقطع بالمسافر السبيل ، فلا ينفعه الدليل ، كذلك لا بد للمريد من أن يعالج نفسه بالعبادة ، إذ لا فائدة لشيخ ينصح نفسا لم ترعو عن طريق الغواية ، ولم تسلك مسالك الهداية ، وانظر (يا رعاك الله) إلى خطاب المولى جل وعلا للغزالي في منامه ، حيث يقول له : ذر مشاغلك ... الخ ، أي اترك مشاغلك الدنيوية ، وتعلق بعبادي الذين أحبهم ؛ لأنهم باعوا دنياهم بحبي ، ولما سأله أن يشمله برعايته ، أجابه إلى طلبه ، وأفهمه أن الحائل بينه وبين أحبابه اشتغاله بحب الدنيا ، وانظر إليه إذ ذهب إلى أستاذه لتأويل رؤياه فقال له أستاذه : إن صحبتني ستكحل بصيرتك ... إلى أن قال وتقف على طور عقلك ، أي على جبل التجليات الإلهية ، فتغرق في الأنوار السرمدية ، وتسمع المناجاة القدسية ، كما سمعها موسى من قبل « إني أنا الله رب العالمين » ولقد صدقت فراسة الشيخ وتحققت ، فقد زكت نفس الغزالي بالعبادة ، وطهرت بالمحبة ، حتى اندمج في سلك الواصلين

---

(١) قال ابن السبكي في التعريف به : هو حجة الإسلام ، ومحجة الدين ، التي يتوصل بها إلى دار السلام جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله شأوا بعيدا ، ولم تقع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب وراءه مطلب لأصحاب البداية والنهاية ، حتى أخمل من الأقران كل خصم بلغ مبلغ السهى ، وأخمد من أنوار البدر كل ما لا تستطيع أيدي المعاندين مسها ، وكان يصفه شيخه إمام الحرمين بقوله : الغزالي بحر مغدق

« المتصوفين) وفي ذلك يقول : ـ

لما أردت أن أخوض في سلك القوم ، وأشرب من شرابهم ، نظرت إلى نفسي فرأيت كثرة حجبها ، فدخلت الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما ، فانفتح لي من نور العلم ما لم يكن عندي ، شيء أرق وأصفى مما كنت أعرف ، فنظرت فيه قوة فقهية : فرجعت الى الخلوة ، واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوما ، فانفتح لي علم آخر أرق وأصفى مما عندي أولا ، ففرحت به ، ونظرت فيه ، فاذا هو قوة ممزوجة بعلم ، ولم ألحق بأهل العلوم اللدنية ، فعلمت أن الكتابة على السهو ، ليست كالكتابة على الصفاء والطهارة .

نعم إن النفس إذا طهرت بالعبادة أصبحت نقية ، قابلة لكل اتصال . فاذا اتصلت أفاض الله عليها من العلوم اللدنية شيئا كثيرا « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقال الاصفهاني (١) في تربية النفس : ـ أعلم أنه ليس يحسن بذي همة قد أحسن الله إليه في خلقه وخلقه ، وقيض له من رباه فأحسن تربيته ، وأزاح في معاونته بعد بلوغ علته ، أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يكون إنسانا ، أو أن يكون إنسانا وقد أمكنه ان يكون ملكا ، أو أن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فتقوم الملائكة بخدمته ، كما قال تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »

فنفوس الناس متباينة ، فمنهم ذو النفس الحيوانية ، ومنهم صاحب النفس الأنسانية ، ومنهم من تكون نفوسهم ملائكية ، ومنهم من علت نفوسهم حتى صاروا ملوكا تخدمهم الملائكة في الحضرة العلية . فتباين النفوس لأختلاف درجات الحب ، وبما أن ظاهر المحبة رضاء المحبوب ، فباطنها إعطاء القلب إليه بالكلية ، بحيث لا يبقى فيه مكان لغيره ، اذ القلب لا يسع اثنين .

حرام على قلب تعرض للهوى

يكون لغير الله فيه نصيب

احمد عبد الهادى

مدرس بمدرسة الزراعة قليوبية

---

(١) هو أبو القاسم الراغب الاصفهاني المتوفى رأس القرن الخامس الهجرى ، وصاحب كتاب (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين)